



أرضٌ لم تُعْلَمْ بِجَاهِ المَعْلَمِ
في تاريخنا العلمي

بقلم

د. عبد الحكيم الأنيس

إدارة البحوث



دائرة الشؤون الإسلامية
والعمل الخيري

ISLAMIC AFFAIRS & CHARITABLE
ACTIVITIES DEPARTMENT

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

صفحات هزينة من الحضارة الإسلامية

أدب المتعلم تجاه المعلم في تاريخنا العلمي

د. عبد الحكيم الأنيس
كبير باحثين بإدارة البحوث

تدقيق التصحيح
شروق محمد سلمان

إخراج
حَيِّ آلَ اللَّهِ بْنِ حَسَبٍ يُؤْتِي

حُقُوقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١ + فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١ +

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي

www.iacad.gov.ae mail@iacad.gov.ae

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد: فيسر « دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة البحوث » أن تقدم إصدارها الجديد « أدب المتعلم تجاه المعلم في تاريخنا العلمي » لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة.

وهذه الرسالة تكشف جانباً مهماً من جوانب التاريخ العلمي المشرق لهذه الأمة، وذلك فيما يتعلق بأدب المتعلم تجاه أستاذه وشيخه ومعلمه.

وقد هدف الباحث إلى إظهار مفردات التطبيق العملي لهذا الأدب المنشود، وكان قد استنبط من هذا الواقع عناوين أورد تحتها أخباراً وقصصاً ووقائع رائعة، مما التقطه وجمعه ووقف عنده من مصادر التاريخ الإسلامي وكتب التراجم وغيرها من الكتب على مدى غير قصير.

والمأمول أن تثير هذه الرسالة الاهتمام بهذا الجانب من العملية التعليمية، الذي يعتريه اليوم كثيرٌ من الفتور والقصور.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل تميز وإقدام، وفي مقدمتها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وطلابه.

راجين من العلي القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْخَاتَمِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

مدير إدارة البحوث

الدكتور سيف بن راشد الجابري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه قبسات وملعات عن موضوع مهم، يفترق إليه كلُّ إنسان في علاقته بأساتذته وشيوخه، ومعلميه ومُرَبِّيه، ذلك هو الأدب الذي يجب أن يتحلى به المتعلم تجاه معلمه.

وقد زخر تاريخ الحضارة الإسلامية بأخبار وصور وقصص رائعة، تجسد الرقي الأخلاقي الذي تمثلت به الأمة في تقدير العلم، ورفع قدر العلماء.

وهذه الصفحات تحاول أن تُذكِّر بهذا الأدب الجميل، وتدعو إلى التحلي به، وتبين كيف كان أدب الأسلاف أمام شيوخهم وأساتذتهم.

ومن الواضح أن هذه العلاقة السامية بين الطالب وأستاذه، إنما قامت على أساس من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وسرى هذا النور في الصحابة الكرام، وفي التابعين وتابعيهم
إلى يومنا هذا - والله الحمد والمنة - .

وهذا الأدب الذي علمناه القرآن والسنة يبين أوضح بيان،
ويجلي أشدّ جلاء منزلة العلم في الإسلام، وسمو قدره، وجليل
قدر أهله، بحيث كان على الراغب فيه، الساعي إلى نيّله، أن يبذل
غاية وسعه في التحلي به، والتخلق بما يمليه، والحفاظ عليه تجاه
الأساتذة، في أثناء الطلب وبعده، في حياتهم وبعدهم .

وقد نجد في بعض الحالات اليوم إخلاصاً بهذا الالتزام،
وفتوراً في العلاقة بين الطالب وأستاذه، بل قد يصل الأمر إلى ما
هو أشد من الفتور ...

لذا كان من المتعين أن يذكّر المرء نفسه، ويذكر غيره بالموقف
الصحيح، والعلاقة المطلوبة، في هذا المجال .

إن الأمة مدعوة إلى إعزاز العلم، وإجلال العلماء، ومن ذلك
إشاعة حسن التعامل معهما، وتصحيح النظر إليهما، وإحلالهما
بالمكان اللائق بهما .

وقد قال الإمام ابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ): «اتفقوا على
إيجاب توقير أهل القرآن والإسلام والنبي ﷺ، وكذلك الخليفة
والفاضل والعالم»^(١).

وأرجو أن تسهم هذه الكلمات بجزء من هذا الواجب الكبير
الذي هو أحد المرتكزات الأساسية لنهضة الأمة .

وغني عن البيان أن الطالب لا بد له من أستاذٍ يأخذ بيده
في مدارج التعلم ومراقبه^(٢)، وإذا كان لا يستغني عنه فمن

(١) نقله ابن مفلح في «الأداب الشرعية» (١/٤٤٠) عن كتاب الإجماع.
وليس في المطبوع سوى قوله: «وكذلك الخليفة والفاضل والعالم»،
وسقط أول الكلام فاضطرب السياق، وأصبح الكلام هكذا:
«واتفقوا أن حلق جميع اللحية مثله لا تجوز، وكذلك الخليفة والفاضل
والعالم» !! انظر: مراتب الإجماع ص ٢٥٢ .

(٢) للطبيب المصري أبي الحسن علي بن رضوان (ت: في حدود ٤٦٠ هـ)
مصنف في أن التعلم من الكتب أوفق من المعلمين، وقد ردّ عليه
ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، نقل بعضه الصفدي في
«الوافي» (٢١/١٠٧-١٠٩)، وأيده بما يتعين الوقوف عليه .
ولأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥ هـ) أبيات جميلة في هذا، فانظر:
الأداب الشرعية (٢/١٢٥)، ونفح الطيب (٣/٣١٠ و ٣١٣) . =

الضروري أن يعرف كيف يؤسس العلاقة معه، ويسلك الطريق الذي يوصله إلى مطلوبه، وأن يعلم أن تقدير العلم وحامله هو من تقدير مصدر هذا العلم .

وما أجهل القاعدة التي وضعها الإمام سفيان بن عيينة إذ قال: «ينبغي للعالم إذا علّم أن لا يُعَنَّفَ، وإذا تعلم أن لا يَأْنَفَ»^(١).

= وسمعت من الشيخ سعيد باشوش - من المغرب - في المسجد النبوي الشريف، في شعبان سنة ١٤٢٣ هـ كلمة طيبة يرويها عن بعض شيوخه، وهي: «مَنْ تَفَقَهَ فِي الْأَوْرَاقِ غَيْرَ فِي الْأَحْكَامِ، وَمَنْ تَطَبَّبَ فِي الْأَوْرَاقِ قَتَلَ الْأَنْامَ، وَمَنْ تَنَحَّى فِي الْأَوْرَاقِ لَحْنَ فِي الْكَلَامِ». ورأيت الجملة الأولى للشافعي بنص: «مَنْ تَفَقَهَ مِنْ بَطُونِ الْكُتُبِ ضَبِيعَ الْأَحْكَامِ» في الدر النضيد للغزي ص ١٣٨ .

(١) روى هذا القول عنه الإمام أبو علي الحسن بن الحسين بن حَمَّان الهمداني الشافعي (ت: ٤٠٥ هـ) في كتابه الفوائد والأخبار والحكايات... ص ١٣٩-١٤٠ .

وقد ورد هذا القول في بعض الكتب منسوباً إلى الإمام محمد بن عبد الباقي الأنصاري البغدادي الحنبلي (ت: ٥٣٥ هـ) بلفظ: «يجب على المعلم أن لا يعنف، وعلى المتعلم أن لا يأنف» كما في المنتظم (١٤/١)، وذيل طبقات الحنابلة (١/١٩٤)، والآداب الشرعية (١/٢٢٤)، وهو لسفيان كما رأيت .

ثم إن هذه المعاملة قرض، وكما تدين تدان، وقد قال الإمام
أبو الخطاب الكلوزاني:

أنا شيخ وللمشايع بالآ
داب علم يخفى على الشبانِ
فإذا ما ذكرتني فتأدّب
فهو قرض يُردُّ بالميزان^(١)

وللإمام البيضاوي لفظة جميلة في تفسير قوله
تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِيَدِنَا مِنْهُمْ قَسِيصٌ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢)، قال:

« لا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه، ويتواضعون
ولا يتكبرون كاليهود، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على

(١) من ترجمة تلميذه الفقيه أبي الفتح أحمد بن عبد الله البغدادي (ت:

٥٧٦ هـ) في الذيل لابن رجب (١/٣٤٨).

(٢) سورة المائدة: ٨٢.

العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات محمودة^(١) وإن كانت
من كافر^(٢) .

والله المستعان لا رب غيره .

وصلى الله على سيدنا محمد معلم الناس الخير، وعلى آله
وصحبه .

عبد الحكيم الأنيس

(١) أي هذه الأخلاق .

(٢) تفسير البيضاوي ص ١٥٦ .

تعريف الأدب لغة واصطلاحاً

قال الزبيدي شارحاً قول الفيروزآبادي:

« (الأدبُ، محرّكةٌ): الذي يتأدّب به الأديب من الناس، سُمِّيَ به لأنه يأدّبُ الناسَ إلى المحامد^(١) وينهاهم عن المقابح . وأصل الأدبِ: الدعاءُ .

وقال شيخنا^(٢) ناقلاً عن تقريرات شيوخه: الأدبُ ملكة تعصم مَنْ قامت به عمّا يشينه .

وفي المصباح^(٣): هو تعلُّمُ رياضة^(٤) النفس ومحاسن الأخلاق .

(١) قال التفتازاني في كتابه النعم السوابغ على الحكم النوابغ ص ١٣: «الأدب ما يأدّب إلى المحامد»، ونقله المناوي في فيض القدير (١/ ٢٢٤) بلفظ: «هو ما يؤدي بالناس إلى المحامد» .

(٢) العلامة محمد بن الطيب الفاسي .

(٣) المصباح المنير للفيومي ص ٩، والنقل بتصريف .

(٤) جاء في القاموس ص ٨٣١: «راض المهر رياضاً ورياضة: ذلّهُ»، فالمقصود تعلم تطويع النفس وتليينها لتقبل الحسن وتنتهي عن القبيح .

وقال أبو زيد الأنصاري: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، ومثله في التهذيب^(١).

وفي التوشيح: هو استعمال ما يُحمدُ قولاً وفعلاً، أو الأخذ [بمكارم الأخلاق] ^(٢)، أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك .

ونقل الخفاجي في « العناية » عن الجواليقي في « شرح أدب الكاتب »: « الأدب في اللغة: حسن الأخلاق وفعل المكارم، وإطلاقه على علوم العربية مؤلِّدٌ حدث في الإسلام ^(٣) .

(١) في تهذيب اللغة للأزهري (٢٠٩ / ١٤): « الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، سُمي أدباً لأنه يأدب الناس الذين يتعلمونه إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح . يأدبهم أي يدعوهم، وأصل الأدب: الدعاء ... » .

(٢) سقط من الأصل، استدركته من فتح الباري (٤٠٠ / ١٠) وفيض القدير (٢٢٥ / ١) .

(٣) في هذا نظر لا يتسع المقام لبسطه .

وقال ابن السيد البطليوسي: الأدب أدب النفس والدرس.

والأدب: (الظرفُ) بالفتح، (وحسن التناول)، وهذا القول

شامل لغالب الأقوال المذكورة، ولذا اقتصر عليه المصنف^(١).

وقال الجرجاني: «الأدب: عبارة عن معرفة ما يحترز به عن

جميع أنواع الخطأ»^(٢).

ومن قبل قال الإمام عبد الله بن المبارك: «قد قال الناس في

الأدب فأكثرُوا، ونحن نقول: هو في معرفة النفس»^(٣).

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٢/٢).

(٢) التعريفات ص ٢٩.

(٣) تهذيب الأسرار ص ٢١٤.

أهمية الأدب

الكلام على أهمية الأدب طويل أجتزئ منه بهذه اللمعات:

قال الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم^(١).

وقال: إذا وصف لي رجلٌ له علمٌ الأولين والآخرين لا أتأسف على فوت لقائه، وإذا سمعت رجلاً له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على فوته^(٢).

وقال: لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب. رواه الحاكم في «تاريخه»^(٣).

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص ٢٨٥. وفي الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/٥٥٣): «قال ابن المبارك: قال لي مخلد بن الحسين»، وذكر القول. وفيه «الحديث» بدل «العلم»، و«مخلدة» بدل «مخلد». ومخلد هو الإمام الكبير الذي قال فيه أبو داود: «كان أعقل أهل زمانه». توفي سنة (١٩١ هـ) أو بعدها. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٩/٢٣٦).

(٢) الآداب الشرعية (٣/٥٥٢).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٥٥٢).

وقال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب. قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره. قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل^(١).

وروى الخطيب في ترجمة الإمام المقرئ أبي بكر بن مجاهد (ت: ٣٢٤ هـ) عن محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني قال: تقدمت إلى أبي بكر بن مجاهد لأقرأ عليه، فتقدم إليه رجل وافر اللحية، كبير الهامة، فابتدأ ليقرأ، فقال: ترفق يا خليلي، سمعت محمد بن الجهم السمرري يقول: سمعت الفراء يقول: أدب النفس، ثم أدب الدرر^(٢).

وقد مُدِّح العلامة النحوي اللغوي الشريف أبو السعادات ابن الشجري (ت: ٥٤٢ هـ) بأنه « لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا وتتضمن أدب نفس، أو آداب درس »^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٣٩٧/٨).

(٢) تاريخ مدينة السلام (٣٥٤/٦)، ط دار الغرب الإسلامي.

(٣) نزهة الألباء للأنباري ص ٣٠٠.

وجاء عن الفيلسوف ذيوجانس أنه رأى غلاماً جميلاً لا
أدب له، فقال: « أي بيت لولا أنه لا أساس له »^(١)، فماذا تنفع
حسن صورة دون نفس مستتيرة؟

(١) آداب الفلاسفة لحنين بن إسحاق، اختصار محمد بن علي الأنصاري
ص ١١٢ .

أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

هذا الأدب منهج قرآني، وقد قصَّ الله تعالى علينا قصة موسى مع الخضر في سورة الكهف، وفيها قوله تعالى - فيما حكاه عن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام - : ﴿ هَلْ أَتَّبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُسُدًا ﴾ .

قال الإمام الرازي: « اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللفظ عندما أراد أن يتعلم من الخضر:

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعاً له، لأنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعَكَ ﴾ .

وثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذه مبالغة عظيمة في التواضع .

وثالثها: أنه قال: ﴿ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ ﴾ ، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم .

ورابعها: أنه قال: ﴿ مِنَّمَا عَلَّمْتَ ﴾ ، وصيغة « من »

للتبعض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع، كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله .

وخامسها: أنه قال: ﴿ وَمِمَّا عَلَّمْتَنِي ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم .

وسادسها: أن قوله: ﴿ رُشِدًا ﴾ طلبٌ منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

وسابعها: أن قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَنِي ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبدٌ من تعلمت منه حرفاً^(١) .

(١) نسبت هذه الكلمة إلى الإمام علي في تعليم المتعلم ص ٤٧، وروى الخطيب البغدادي في كتابه الفقيه والمتفقه في باب تعظيم المتفقه الفقيه وهيئته إياه وتواضعه له (١٩٧ / ٢): عن محمد بن علي الأدفوي =

وثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإننا إذا قلنا لا إله إلا الله، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأننا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، وإنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل الرسول ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها، لا جرم كنا متبعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ .

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكَ ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ، لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها . وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض .

= النحوي قوله: « إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد . قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف: 60] ، وهو يوشع بن نون، ولم يكن مملوكاً له، وإنما كان متلمذاً له متبعاً له، فجعله الله فتاه لذلك » .

وتاسعها: أن قوله ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء .

وعاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل وأنه موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به، لأن كل مَنْ كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .

والحادي عشر: أنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً، ثم طلب ثانياً أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم .

والثاني عشر: أنه قال: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم « (١) .

(١) تفسير الرازي (١٥٢/٢١)، هذا وقد قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمات تفسيره « التحرير والتنوير » وهو يتحدث عن طرائق المفسرين (١/٤٢): « ففي الطريقة الثانية قد فرغ العلماء وفضلوا في الأحكام... فلا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية، وله مزيد تعلق بالأمر الإسلامية، كما نفرض أن يفسر قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] بما ذكره المتكلمون... وكذا أن يفسر ما حكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب المعلم والمتعلم كما فعل الغزالي، وقد قال ابن العربي: إنه أملى عليها ثمان مئة مسألة !

أدب الصحابة مع الرسول ﷺ

لقد تأدب الصحابة الكرام بأدب القرآن:

فعن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوساً في المسجد إذ خرج رسول الله ﷺ، فجلس إلينا، فكأن على رؤوسنا الطير، لا يتكلم أحد منا (١).

وعن أسامة بن شريك قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأننا على رؤوسهم الطير (٢).

قال أبو بكر بن الأنباري: « قولهم: (جلساء فلان كأنها على رؤوسهم الطير) في هذا قولان:

أحدهما: أن يكون المعنى أنهم يسكنون فلا يتحركون ويغضون أبصارهم، والطير لا يقع إلا على ساكن، يقال للرجل

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد: باب فضل النفقة في سبيل الله، (ضمن الفتوح: ٦/٣٨٩)، وأخرج نحوه ابن ماجه عن البراء بن عازب . انظر السنن، كتاب الجنائز: باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١/٢٨٩) . وانظر الجامع للخطيب (١/٢٨٩) .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

إذا كان حليماً وقوراً: إنه لساكن الطائر، أي كأن على رأسه طائراً
لسكونه، قال الشاعر:

إذا حلت بنو أسد عكاظاً رأيت على رؤوسهم الغرابا

فمعنى البيت أنهم يذلون ويسكنون كأن على رؤوسهم غراباً
من سكونهم، وإنما خص الغراب لأنه أحذر الطير وأبصرها ...

والقول الثاني: أن الأصل في قولهم: كأننا على رؤوسهم
الطير، أن سليمان بن داود عليهما السلام كان يقول للريح:
أقلينا، وللطير: أظلينا، فتقله وأصحابه الريح وتظلمهم الطير،
وكان أصحابه يغضون أبصارهم هيبة له وإعظاماً، ويسكنون
فلا يتحركون ولا يتكلمون بشيء إلا أن يسألهم عنه فيجيبون.
فقليل للقوم إذا سكنوا: هم حلماؤ وقراء كأننا على رؤوسهم
الطير، تشبيهاً بأصحاب سليمان، ومن ذلك الحديث الذي
يُروى: كان رسول الله ﷺ إذا تكلم أظرق جلساؤه كأننا على
رؤوسهم الطير»^(١).

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٢٩٠-٢٩١)، ونقل الخطيب
البغدادي في «الجامع» هذا النص باختصار دون أن يصرح =

وفي حديث عمر عن مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها: مشهد جميل يصور ما ينبغي أن يكون عليه أدب السائل أمام المسؤول: يقول عمر رضي الله عنه: «... حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام...».

وفي آخره: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١)، ومن تعلم الدين تعلم أدب تلقي الدين .

= باسم مصدره . انظر الجامع (١/ ٢٩٠-٢٩١)، وفي المطبوع تصحيف «علماء» إلى «علماء» .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد والطيالسي وابن حبان . وقد أطال ابن رجب في شرح هذا الحديث، انظر جامع العلوم والحكم (١/ ٩٣-٩٤) .

صور من أدب الصحابة فيما بينهم

قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (٨ / ٢٩٨) في ترجمة الإمام ابن عباس : « قال البيهقي - وساق ابن كثير سنده إلى عكرمة - قال : قال ابن عباس : لما قبض رسول الله ﷺ ، قلت لرجلٍ من الأنصار : هلّمّ فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير ، فقال : يا عجباً لك يا ابن عباس ! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم ؟

قال : فترك ذلك ، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل يأتي بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح عليّ من التراب ، فيخرج فيراني فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ هلاًّ أرسلت إليّ فأتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن أتيك .

قال : فأسأله عن الحديث .

قال : فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رأيته وقد اجتمع حولي الناس يسألوني ، فيقول : هذا الفتى كان أعقل مني .

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، حدثنا أبو سلمة، عن ابن عباس قال: وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل بباب أحدهم ولو شئت أن يؤذن لي عليه لأذن لي، ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه» .

ورواه أبو خيثمة النسائي في « كتاب العلم » ص ١٤١ (١) .

وقال ابن عبد البر في التمهيد: « وروينا من وجوه عن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال له زيد: خلّ عنك يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء (٢)،

(١) « صفحات من صبر العلماء » ص ٣٧-٣٨، وانظر لزاماً « إتخاف السادة المتقين » (١/١٥٣)، و« التراتيب الإدارية » (٢/٣٢٤ و٣٣٢) .

(٢) علق شيخنا الأستاذ محمد عوامة هنا بقوله: روى هذا المقدار من القصة يعقوب بن سفيان في « تاريخه » (٣/١٧٦) بإسناد صحيح كما في « الإصابة » ترجمة زيد بن ثابت .

وزاد بعضهم في هذا الحديث أن زيد بن ثابت كافأ ابن عباس على أخذه بركابه أن قبل يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا . وهذه الزيادة: من أهل العلم مَنْ ينكرها . والجنابة كانت جنازة أم زيد بن ثابت، صلى عليها زيد وكبر أربعاً، وأخذ ابن عباس بركابه يومئذ ^(١) . أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ^(٢) .

ومن هنا نفهم قول ابن عباس رضي الله عنهما: « ذلت طالباً فعزيزت مطلوباً » ^(٣) .

وأذكر هنا مشهداً عن العز الذي وصل إليه:

أخرج أبو نعيم في « الحلية » من رواية يونس بن بكير، حدثنا أبو حمزة الثمالي، عن أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس

(١) صفحات في أدب الرأي ص ٦٣ .

(٢) انظر مزيداً من التخريج في « إتخاف السادة المتقين » (١/٥٠٥) .

(٣) الحث على طلب العلم للعسكري ص ٦٥، وجامع بيان العلم وفضله

(١/٤٧٤)، والإحياء، انظر الإتخاف (١/١٥٢)، والمجموع للنووي

(١/٦٩)، وكشف الخفاء (١/٥٠٥) .

مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا يذهب قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه فقال: ضع لي وضوءاً. قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج فقل لهم: مَنْ كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه فليدخل، فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوها عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم ثم قال: إخوانكم فخرجوا ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل...

ثم أدخل السائلين عن الحلال والحرام، ثم عن الفرائض، ثم عن العربية والشعر والغريب .

يقول أبو صالح: « فلو أن قريشاً كلها فخرت بذلك لكان فخراً لها، فما رأيت مثل هذا لأحدٍ من الناس .. »^(١) .

وقد بات رضي الله عنه القدوة في هذا المسلك لمن بعده،

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٢٠-٣٢١)، إتحاف السادة المتقين (١/ ١٥٤) .

ومن هؤلاء:

- الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام التركي البغدادي (ت: ٢٢٢ هـ). جاء عنه أنه قال: « أدركت من العلم ما أدركت، وما استأذنت على أحد من الشيوخ قط، إنما كنت أصبر أن يخرج، وأن أتأول فيه قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [الحجرات: ٥] ^(١).

- ومنهم العلامة الألويسي المفسر فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾ أنه قرأ وهو صغير أن ابن عباس كان يذهب إلى أبي بن كعب رضي الله عنه في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدقه عليه حتى يخرج، فاستعظم أبي ذلك منه فقال له يوماً: هلاً دقت الباب يا ابن عباس؟ فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته، وقد قال الله تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾.

(١) سؤالات أبي عبد الرحمن السلمي للدارقطني ص ١٢٠، وانظر: طبقات المفسرين للداوودي (٤١/٢).

قال الألويسي: « وقد قرأت هذه القصة صغيراً، فعملت بموجبها مع مشايخي والحمد لله تعالى » (١).

لقد ذكرت ابن عباس ومن بعده نموذجاً وإلا فتوقير العلماء كان هدياً عاماً متبعاً:

قال البلخي في « عين العلم »: « ويأخذ [أي الطالب] بركاب العلماء للتوقير ».

وقال شارحه العلامة علي القاري (ت: ١٠١٤ هـ) بعد ذكر قصة ابن عباس السابقة: « وأخذ عمر بغرز زيد - أي بركابه - حتى رفعه، وقال: هكذا فافعلوا بزيد وأصحابه » (٢).

أورد هذا الشيخ عبد الحي الكتاني وقال بعده: « وقد أخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس، وأحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت رفعاه: ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ولم يرحم صغيرنا، ولم يعرف لعالمنا حقه » (٣).

(١) روح المعاني (٢٦ / ١٤٤).

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (١ / ٣٧٥).

(٣) التراتيب الإدارية (٢ / ٣٣٣).

جملة من الآداب المطلوبة تجاه المعلم

١ - من الأدب حسن الجلوس بين يديه:

يروى عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال:

« من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة،
وتخصه دونهم بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن
عنده بيدك، ولا تغمزن بعينيك، ولا تقولن: قال فلان
- خلافاً لقوله - ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تسارّ في مجلسه، ولا
تأخذ ثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تعرض من طول
صحبتة، فإنما هو بمنزلة النخلة، تنتظر متى يسقط عليك منها
شيء، وإن المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصائم القائم،
الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام
ثلثة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة »^(١).

(١) الجامع للخطيب (١/٣٠٠-٣٠١)، والفتاوى والمتفقه (٢/١٩٨)،
والمجموع للنووي (١/٦٧) إلى قوله: « شيء ». وانظر النص غير
منسوب إلى علي في الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري
ص ٨٤، ومناقب أحمد لابن الجوزي ص ٥٨.

ولنتأمل في هذه الأخبار:

قال المسيب بن واضح: رأيت أبا إسحاق الفزاري بين يدي عبد الله بن المبارك قاعداً يسأله (١).

وروى الخطيب البغدادي في ترجمة الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بـ «دحيم» الدمشقي (ت: ٢٤٥ هـ) بسنده عن الحسن بن علي بن بحر يقول: «قدم دحيم بغداد سنة اثنتي عشرة [٢١٢ هـ] فرأيت أبي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين قعوداً بين يديه كالصبيان» (٢).

وذكر الذهبي هذا الخبر دون سند، لكنه زاد مع المذكورين: «خلف بن سالم» (٣).

وقال إدريس بن عبد الكريم الحداد: قال لي سلمة بن عاصم

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٠).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٦٦).

(٣) انظر تذكرة الحفاظ (٢/ ٤٨٠)، وللمزيد انظر «مناقب أحمد» لابن الجوزي ص ٥٦.

(العالم النحوي): أريد أن أسمع كتاب « العَدَد » من خلف [بن هشام البزار المقرئ (ت: ٢٢٩ هـ)]، فقلت لخلف، فقال: فليجيء، فلما دخل رفعه لأن يجلس في الصدر، فأبى وقال: لا أجلس إلا بين يديك، وقال: هذا حق التعليم . فقال له خلف: جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عوانة فاجتهدت أن أرفعه، فأبى، وقال: لا أجلس إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه « (١) .

ومن حُرِّمَ هذا الأدب حُرِّمَ من العلم:

قال حمدان بن الأصبهاني: « كنت عند شريك [بن عبد الله (ت: ١٣٣ هـ)] فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، فأعاد عليه، فلم يلتفت إليه . فقال: كأنك تستخف بأولاد الخلافة؟ قال: لا،

(١) تاريخ بغداد في ترجمة سلمة (٩/ ١٣٤)، والجامع للخطيب (١/ ٢٩٩)، وانظر حاشيته لزاماً، وقد أورد القصة الأنباري في نزهة الألباء في ترجمة سلمة ص ١١٧ إلى قوله: « نتعلم منه فقط »، وقد ظن المحقق أن خلف هو ابن حيان المعروف بخلف الأحمر، وهذا وهم!

ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه . قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم» (١) .

وروى الخطيب عن أبي العباس المروزي قال:

« كنا يوماً عند أبي خيثمة زهير بن حرب، فجاءه فتى أحول مجذور، فجلس ومد رجله بحضرة أبي خيثمة، وجعل يتأوه، فقال له أبو خيثمة: يا بني أنت ثقيل، فما شأنك؟ قال: فغضب وقام فركب ومضى إلى أبيه، وبلغني أنه شكاه، فقال له أبوه: يا بني! أنت ثقيل كما قال، وقد علمت ذلك ولكن أحببت أن يكون بغضك بإسناد» (٢) .

وقال المناوي: « وذكر البرهان البقاعي أنه سأله بعض العجم أن يقرأ عليه، فأذن، فجلس متربعا، فامتنع من إقرائه، وقال: أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الذي جئت تطلبه .

(١) الجامع (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، وانظر القصة في الحث على طلب العلم ص ٨٤-٨٥ .

(٢) الجامع (١/ ٣٠٠) .

وحكى عن الشمس الجوجري^(١) أنه لما شرع في الاشتغال بالعلم طاف على أكابر علماء بلده، فلم يعجبه منهم أحد، لحدة فهمه، حتى إذا جاء إلى شيخ الإسلام يحيى المناوي، فجلس بين يديه - وفي ظنه أنه يلحقه بمن تقدم - فشرع في القراءة، فتأمل الشيخ، فوجد إصبعاً من أصابع رجله مكشوفة، فاتهره وقال له بحال: أنت قليل الأدب، لا يجيء منك في الطلب، غط إصبعك واستعمل الأدب، فحُمّ لوقته، وزال عنه ما كان يجده من الاستخفاف بالناس، ولزم دروسه حتى صار رأساً عظيماً في العلم»^(٢).

وقال الإمام برهان الدين الزرنوجي: «وينبغي لطالب العلم ألا يجلس قريباً من الأستاذ عند السبق بغير ضرورة، بل

(١) في الأصل «فيض القدير»: الجوهري، وهو تصحيف، وقد ذكر السخاوي في ترجمة الشمس الجوجري محمد بن عبد المنعم (ت: ٨٨٩هـ) أنه أخذ عن المناوي واشتدت عنايته بملازمته. انظر الضوء اللامع (٨/١٢٣).

(٢) فيض القدير (١/٢٢٥)، وصفحات من أدب الرأي ص ١٢١-١٢٢.

ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدر القوس فإنه أقرب إلى التعظيم» (١) .

ومن الصور المشرقة في هذا الجانب ما جاء عن عمرو بن قيس الملائمي (٢) أنه كان إذا بلغه الحديث عن الرجل، فأراد أن يسمعه، أتاه حتى يجلس بين يديه ويخفض جناحه ويقول: علمني رحمك الله مما علمك الله (٣) .

ومثل هذا ما ذكره «أحمد بن إسحاق الحلبي قال: سمعت عمر بن سيّار المنبجي يقول: سمعت مالك بن أنس رحمه الله يقول: وجه إليّ هارون الرشيد يسألني أن أحدثه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن العلم يُؤتى ولا يأتي . قال: فصار إلى منزلي، فاستند معي إلى الجدار فقلت: يا أمير المؤمنين إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم . قال: فجلس بين يدي، قال: فقال لي بعد

- (١) تعليم المتعلم ص ٥٥، ومثله في: آداب المتعلمين لنصير الدين الطوسي المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية م ٣ ج ١-٢ ص ٢٧٥ .
 (٢) مات سنة بضع وأربعين ومئة . انظر تقريب التهذيب ص ٤٩٥ .
 (٣) الجامع (١/٣١٩) .

مدة: يا أبا عبد الله تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا
علم سفيان بن عيينة فلم ننتفع به .

وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيحدثهم، ويأخذ
دراهمهم» (١) .

وقال الذهبي في ترجمة الخطيب البغدادي:

« قال السمعاني: سمعت يوسف بن أيوب بمر و يقول:
حضر الخطيب درس شيخنا أبي إسحاق [الشيرازي]،
فروى أبو إسحاق حديثاً من رواية بحر بن كنيز السقاء، ثم
قال للخطيب: ما تقول فيه؟ فقال: إن أذنت لي ذكرت حاله،
فانحرف أبو إسحاق، وقعد كالتلميذ، وشرع الخطيب يقول .
وشرح أحواله شرحاً حسناً، فأثنى الشيخ عليه، وقال: هذا
دارقطني عصره» (٢) .

(١) الحث على طلب العلم ص ٨٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٨٠-٢٨١)، وانظر المستفاد من ذيل تاريخ
بغداد للدمياطي ص ٥٧-٥٨ .

وقال ياقوت الحموي في ترجمة النسابة عزيز الدين إسماعيل
ابن الحسين المروزي العلوي (٥٧٢ - بعد ٦١٤ هـ):

« حدثني - رحمه الله - قال: لما ورد الفخر الرازي إلى مرو،
وكان من جلاله القدر، وعِظَم الذكر، وضخامة الهيبة، بحيث لا
يُراجع في كلامه، ولا يتنفس أحد بين يديه لإعظامه، على ما هو
مشهور متعارف، دخلت عليه، وترددت للقراءة عليه، فقال لي
يوماً: أحب أن تصنف لي كتاباً لطيفاً في أنساب الطالبين لأنظر
فيه فلا أحب أن أموت ^(١) جاهلاً به . فقلت له: أتريده مشجراً أم
منشوراً؟ فقال: المشجر لا ينضب بالحفظ، وأنا أريد شيئاً أحفظه.
فقلت له: السمع والطاعة . فمضيت وصنفت له الكتاب الذي
سميته « الفخري »، وحملته وجئته به، فلما وقف عليه نزل عن
طراحته وجلس على الحصير وقال: اجلس على هذه الطراحة .
فأعظمت ذلك وهبته ^(٢)، فانتهرني نهرة عظيمة مزعجة وزعق فيَّ
وقال: اجلس بحيث أقول لك! فتداخمني - علم الله - من هيئته

(١) في الطبعة الأولى: أكون .

(٢) في الطبعة الأولى، والوافي: وخدمته .

ما لم أتمالك إلا أن جلست حيث أمرني. ثم أخذ يقرأ عليّ ذلك الكتاب وهو جالس بين يدي، ويستفهمني عما يستغلق عليه إلى أن أنهاه قراءةً. فلما فرغ من قراءته قال: اجلس الآن حيث شئت، فإن هذا علمٌ أنت أستاذي فيه، وأنا أستفيد منك وأتلمذ لك، وليس من الأدب أن يجلس التلميذ إلا بين يدي الأستاذ. فقمتم من مقامي، وجلس هو في منصبه، ثم أخذت أقرأ عليه وأنا جالس، بحيث كان أولاً. وهذا العمري من حسن الأدب حسن، ولا سيما من مثل ذلك الرجل العظيم المرتبة»^(١).

وإذا قدرنا أن هذا حصل في عام وفاة الرازي وهي (٦٠٦ هـ) فيكون عمر الرازي (٦٣) عاماً، وعمر الشيخ النسابة الذي قرأ عليه (٣٤) عاماً، فتأمل كم كان العلم غالياً عليه حتى قرأ على تلميذه وهو في سن أولاده!

وعلى المرء أن لا يأنف من التعلم مهما كان موقعه من العلم

(١) معجم الأدباء (٢/ ٦٥٤-٦٥٥) ط إحصان عباس، ونقله الصفدي في الوافي بالوفيات (٩/ ١٠٩-١١٠) إلى قوله: «بين يدي الأستاذ» باختصار بعض ألفاظه.

والسن، جاء في ترجمة النسابة دَعْفَل بن حنظلة السدوسي الذهلي الشيباني (ت: ٦٥ هـ) ^(١) أنه قيل له: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وكنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته ^(٢).

ونعود إلى الرازي لنقف على خبر آخر معجب:

قال أبو العباس أحمد بن يوسف اللبلي الفهري (ت: ٦٩١ هـ):

« أخبرني بالقاهرة الفقيه ابن الطباخ أن الإمام ابن الخطيب [فخر الدين الرازي] كان يقرأ علم النحو على نحوي يعرف بابن السكاك، فكان ابن الخطيب إذا فرغ من مجلسه أتى مكانه وقعد إليه، فكان يعظم على ابن السكاك مجيئه إليه، ويقول له: أنت إمام، وحقك أن يُؤتى إليك . فيقول الإمام ابن الخطيب: هذا الذي أفعله هو الواجب .

(١) قال ابن سعد: « أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً » . الوافي (١٩/١٤) .

(٢) الوافي بالوفيات (١٩/١٤) .

قال ابن السكالك: فكان الإمام يبحث معي في كتاب « المفصل » فكان في الجزء الأول ربما يكون مثلي أو دوني يسيراً، وأما في الجزء الثاني فكان يحل لي المشكلات التي كانت تعتاص عليّ» (١).

وأخيراً فقد قال الإمام القسطلاني: «ينبغي للطالب أن يقعد قعدة المتعلمين، لا قعدة المعلمين، بأن يجثو على ركبتيه . وليحذر من جعل يده اليسرى خلف ظهره معتمداً عليها، ففي الحديث أنها قعدة المغضوب عليهم، رواه أبو داود في سننه» (٢).

ولا بأس من تقبيل يد الشيخ:

وقد روى البخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد عن ابن عمر قال: «كنت في سرية من سرايا رسول الله فأتيناه حتى قبلنا يده» (٣) ... وقبل ثابت عيني أنس» (٤).

(١) فهرست اللبلي ص ١٢٨-١٢٩ .

(٢) لطائف الإشارات (١/ ٣٣٢) .

(٣) الجامع (١/ ٢٨٦) .

(٤) الجامع (١/ ٢٨٨) .

وقال ابن الجوزي في « مناقب أصحاب الحديث »:
« ينبغي للطالب أن يبالغ في التواضع للعلم، ويذل نفسه له .

قال: ومن التواضع للعلم تقبيل يده، وقبّل سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض أحدهما يد حسين بن علي الجعفي^(١)،
والآخر رجله^(٢) .

وقال أبو حامد أحمد بن حمدون القصار: « سمعت مسلم ابن الحجاج وجاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري فقَبَّلَ بين عينيه وقال: دعني أقبّل رجلك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطيب الحديث في علله^(٣) .

(١) الجعفي إمام عابد من رجال الستة . انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٤٤٩/٦-٤٥٤) .

(٢) نقل هذا ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/٢٥٩) . و « مناقب أصحاب الحديث » لم تذكر له نسخة . انظر: قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي للدكتورة ناجية عبد الله ص ١٨٦ .

(٣) تاريخ بغداد (١٣/١٠٢) .

٢- ومن الأدب عدم تخطئته علناً أمام الملائ:

قال أبو البركات الأنباري في ترجمة الإمام أبي بكر بن الأنباري:

« قال أبو الحسن الدارقطني: حضرت أبا بكر بن الأنباري في مجلس إملائه يوم الجمعة فصحف اسماً أورده في إسناد حديث - إما كان حيان فقال حبان، أو حبان فقال حيان - .

قال أبو الحسن: فأعظمتُهُ أَنْ يُنْقَل عن مثله في الفضل والجلالة وهم، وهبته أن أوقفه على ذلك، فلما انقضى الإملاء، تقدمت إلى المستملي وذكرت له وهمه، وعرفته صواب القول فيه، وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية، فقال أبو بكر - رحمه الله - للمستملي: عرّف الجماعة الحاضرين أنّا صحفنا الاسم الفلاني لما أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية، ونَبّهنا ذلك الشاب على الصواب، وهو كذا، وعرّف ذلك الشاب أننا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال « (١) .

(١) نزهة الألباء ص ٢٠٣ .

ومن الأساليب الرفيعة في تنبيه الشيخ على الخطأ أسلوب القاضي أبي عبد الله الصيمري حين قراءته على الشيخ أبي بكر الخوارزمي، والخبر يرويه الخطيب البغدادي عن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني قال: « سمعت القاضي أبا عبد الله الصيمري يقول:

درسنا يوماً أبو بكر الخوارزمي، فحكى في تدرسه عن محمد ابن الحسن شيئاً وهم في حكايته، وكان محمد قد نص في « الجامع الصغير » على خلافه، فلما انقضى تدرسه تركت الإعادة على الأصحاب ومضيت إلى أبي بكر وقد دخل منزله، ومعى كتاب « الجامع » لمحمد بن الحسن، واستأذنت على أبي بكر، فأذن لي في الدخول، فدخلت وسلمت عليه ثم قلت له: ها هنا باب فيه شيء قد أشكل عليّ، وأحتاج إلى قراءته على الشيخ، فقال: افعل. فقرأت من قبل الموضوع الذي قصدت لأجله، إلى أن انتهيت إليه وجاوزته. فقال أبو بكر: قد حكينا في الدرس عن محمد ابن الحسن شيئاً، والنص ها هنا عنه بخلافه، وهو كذا، فعرف

الأصحاب ذلك حتى يذكروه ويعلقوه على الصواب - أو كما قال - « (١) » .

وقد أورد الخطيب هذه الحكاية بعد قوله: « إذا أخطأ الفقيه، وتبين لصاحبه الآخذ عنه خطؤه، فإن صاحب يتلطف في رده عليه » (٢) .

وهناك من العلماء من يأمر بالمباحثة والمراجعة ويحض عليها:

قال العلامة قاضي الجماعة بغرناطة أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق (ت: ٨٩٦هـ):

« لقد كان شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد ابن فتوح، قدس الله تعالى روحه، يُفْسِح لصاحب البحث مجالاً رحباً، ويوسع المراجع له قبولاً ورحباً، بل يطالبُ بذلك ويقتضيه، ويختار طريق التعليم به ويرتضيه، توقيفاً على ما خلاص

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٨٩) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٨٨) .

له تحقيقه، ووضح له في معيار الاختبار^(١) تدقيقه، وإلاّ فقد كان ما يليه غاية ما يتحصّل، ويتمهد به مختار ما يحفظ ويتأصّل .

ثم قال: « ومخالفة التلميذ الشيخ في بعض المسائل إذا كان لها وجه، وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء، ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم، والإجلال الملائم، فقد خالف ابن عباس وعمر وعلياً وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، وكان قد أخذ عنهم، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة، وإنما أخذوا العلم عنهم، وخالف مالك كثيراً من أشياخه، وخالف الشافعي وابن القاسم وأشهب مالكا في كثير من المسائل، وكان مالك أكبر أساتيد الشافعي، وقال: لا أحدٌ آمنٌ عليّ من مالك، وكاد كلُّ من أخذ [عنه]^(٢) العلم أن يخالفه بعضُ تلامذته في عدّة مسائل، ولم يزل ذلك دأبَ التلاميذ مع الأساتيد إلى زماننا هذا .

(١) في الأصل: الاختيار .

(٢) زيادة مني .

وقال: وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع أشياخهم، رحمهم الله تعالى!

قال: ولا ينبغي للشيخ أن يتبرّم من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذي وصفناه، والله تعالى أعلم» (١).

وللسيوطي (ت: ٩١١ هـ) كلام جميل دال على سمو نفسه وأدبه مع شيوخه قاله في كتابه «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام» ونصه:

«.. نرى كثيراً من أهل المنطق إذا تكلم في مسألة فقهية وأراد تخريجها على قواعد علمه أخطأ ولم يصب ما قالتها الفقهاء ولا جرى على قواعدهم.

وقد علم الناس ما كان يقع بين شيخنا [الكافيجي] (ت: ٨٧٩ هـ) وبين فقهاء الحنفية من كثرة التنازع والاختلاف في الفتاوى الفقهية، ونسبتهم إياه (٢) إلى أنها غير جارية على قوانين

(١) نفع الطيب (٣/٤٣٧).

(٢) كذا والوجه: إياها.

الفقه، وما ذاك إلا لكونه كان يخرجها على قواعد الاستدلال المنطقي، وللشريعة قواعد أخرى لا يخرج الفقه إلا عليها، فمن تركها وخرَّج على غيرها لم يدرك غرض الفقه . والشيخ - رحمه الله - أستاذي، ونعله تاج رأسي، ولكن هذا هو الحق الذي لا بد منه، وقد أراد مني مرات أن أوافقه في فتاوى تتعلق بالأوقاف، ولم أوافقه على شيء منها ^(١).

وللعلامة طاشكبري زاده كلام جيد إذ ذكر في آداب الطالب أن « لا يتبع زلة المعلم وهفوته، ويحمل ما سمع منه من الهفوات على أحسن المحامل والتأويلات » ^(٢).

(١) صون المنطق والكلام ص ١٦ .

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (١/٢٦) .

٣- ومن الأدب ترك الكلام بحضرته:

روى الحافظ الذهبي عن الإمام عبد الله بن المبارك أنه سئل بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة، فقال: «إِنَّا نُهَيِّنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عِنْدَ أَكْبَرِنَا» (١).

ونقل عن إسماعيل الخطّبي قال:

«بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد، فقال أصحاب الحديث لحماد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا. فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدثهم فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل أحدث وأنت حاضر؟ فقال: أقسمت عليك لتفعلن، فقال: خذوا، حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدث بحرف إلا عن حمّاد» (٢).

وقال السيوطي: «قال ثعلب في أماليه: حضرت مجلس ابن حبيب فلم يُمَلِّ، فقلت: ويحك! أمل، مالك؟ فلم يفعل حتى

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٠).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٨٢-٣٨٣).

قمت ... قلت [القائل السيوطي]: في هذا توقيير مَنْ هو أَجَلُّ
منه فلا يملي بحضرته «^(١).

وقد بالغ أحد الأئمة في ذلك: يقول الشيخ عبد الوهاب
الشعراني:

« وكان الإمام ابن خزيمة رضي الله عنه يضرب به المثل
في الأدب لا سيما مع شيخه البوشنجي [أبي عبد الله محمد بن
إبراهيم (ت: ٢٩٠ هـ)] حتى إنه سئل عن مسألة وهو في جنازته
فقال: لا أفتي حتى أوارى أستاذي التراب رضي الله عنه «^(٢).

ومن لم يلتزم بهذا عرض نفسه لما لا يحمد:

قال الشيخ ابن بطة المحدث الفقيه الحنبلي: كنت عند الإمام
أبي عمر الزاهد - الحافظ العلامة اللغوي محمد بن عبد الواحد

(١) المزهر (٢/٣١٤).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/١٨٨)، وأصل الخبر في طبقات الشافعية
الكبرى، في ترجمة البوشنجي (٢/١٩١). وهو في صون المنطق
والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي ص ٧٣.

البغدادي الملقب: غلام ثعلب - فسئل عن مسألة، فبادرت أنا
فأجبت السائل، فالتفت إليّ أبو عمر الزاهد فقال لي: تعرف
الفضوليات المتتقيات؟! يعني: أنت فضولي، فأخجلني! (١)

(١) من أدب الإسلام ص ٦٦ .

٤- ومن الأدب معاملته كالأبوين بل أكثر:

إن شيوخك آباء، يقول الإمام النووي: « وهذا - أي ذكر الشيوخ وتسلسلهم - من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليلات، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، وتقبح به جهالتها، فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، وصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهله الأنساب، والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم، وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم » (١).

وقال وهو يترجم الإمام أبا العباس ابن سريج: « هو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه » (٢).

وروى الأصفهاني أنه « قيل لاسكندر: إنك تعظم معلمك أكثر من تعظيمك لأبيك! فقال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب الحياة الباقية » (٣).

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٧-١٨)، وانظر الإمام النووي للدقر ص ٣٥، وتعليم المتعلم ص ٤٧.

(٢) المجموع (١/٢١٢).

(٣) محاضرات الأدباء (١/٤٥)، وقريب منه في «فضيلة الإنسان بالعلوم» ص ٢٩٥.

ومن هنا قال الكاتب البليغ الشاعر الصالح أبو الفتح
الطنزني (ت: في حدود ٥٥٠ هـ):

أُقَدِّمُ أَسْتَاذِي عَلَى وَالِدِي وَإِنْ
تَضَاعَفَ لِي مِنْ وَالِدِي الْبِرُّ وَاللَّطْفُ
فَهَذَا مَرِيي النَّفْسِ، وَالنَّفْسُ جَوْهَرٌ
وَذَاكَ مَرِيي الْجِسْمِ وَهُوَ لَهَا صَدَفٌ^(١)

(١) الوافي بالوفيات (٤/١٦٢)، وورد البيتان في «تطبيق حكم الطريقة
العلية على الأحكام الشرعية النبوية» للصيادي ص ٢٧١ من غير
تعيين قائل، ونصهما:

أرى فضلَ أستاذي على فضلِ والدي
وإن زاد في برِّ وإن زاد في تُحَفِّ
فهذا مريي العقل، والعقلُ جوهرٌ
وهذا مريي الجسمِ والجسمُ من صدَفٍ
وفي «تحفة الطالبين» لابن العطار ص ٥٩:

«قال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله -: العلماء أرفأ بأمة محمد
ﷺ من آبائهم وأمهاتهم؛ لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها،
وأباؤهم وأمهاتهم يحفظونهم من الدنيا وآفاتِها .
يعني الآباء العلماء، وأما الآباء الجهال فلا يحفظونهم لا في الدنيا، ولا
في الآخرة . والله أعلم .»

وقال الشرقاوي: « إن أبا التعليم أشرف من أبي النسب،
كما قيل:

فذاك مربى الروح والروح جوهر

وهذا مربى الجسم والجسم كالصدف»^(١)

وقال الموفق الخوارزمي « رُوي عن أبي حنيفة أنه قال: ما
مددت رجلي نحو دار أستاذي حمادٍ إجلالاً له، وكان بين داري
وداره سبع سكك^(٢). ورُوي عنه أنه قال: ما صليت صلاة منذ
مات حماد إلا استغفرت له مع والدَيَّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت
منه علماً أو علمته علماً^(٣) .

وروى الخطيب البغدادي عن الإمام أحمد بن حنبل
رضي الله عنه أنه قال: « ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو
للشافعي وأستغفر له . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي:

(١) حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب للشيخ زكريا الأنصاري
(١٤/١).

(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة، الباب (١٧) (١/٢٥٧-٢٥٨).

(٣) المصدر السابق (١/٢٥٧).

أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال:
يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل
لهذين من خلف، أو عنهما من عوض؟» (١).

وجاء في وصية الإمام أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف:
«واذكر الموت، واستغفر للأستاذ، ومن أخذت عنهم العلم،
ودوام على التلاوة، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع
المباركة» (٢).

وقد نفذ أبو يوسف هذه الوصية، وجاء عنه أنه قال: «إني
لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوي، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول: إني
لأدعو لحماة مع أبوي» (٣).

وفي هذا يقول العلامة طاشكبري زاده: «ينبغي أن يُقدّم
[الطالبُ] حق المُعلّم على حق أبويه وسائر المسلمين، حُكي

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٦٢ و ٦٦).

(٢) انظر نص الوصية كاملاً في « مناقب الإمام أبي حنيفة »

(٢/ ٣٦٥-٣٧٠)، و« الأشباه والنظائر » لابن نجيم ص ٤٣٢ .

(٣) مناقب الإمام أبي حنيفة للخوارزمي (١/ ٢٥٧).

أن الشيخ الإمام شمس الأئمة الحلواني قد كان خرج من بخارى وقد زارته تلامذته إلا الشيخ الإمام أبا بكر الزرنجري، فقال له: لِمَ لَمْ تزرني؟ قال: منعني عنها خدمة الوالدة. قال: ترزق العمر ولا ترزق رونق الدرس. وكان كذلك، فإنه كان يسكن في أكثر أوقاته في القرى. قال الشاعر:

آباء أجسامنا الذين مضوا
قد أوقعونا في موقع التلف
من علم القرآن كان خير أب
ذاك أب الروح لا أب النطف

وقال آخر:

رأيت أحقَّ الحقِّ حقَّ المعلم
وأوجبهُ حفظاً على كلِّ مسلم
لقد حق أن يهدى إليه كرامةً
لتعليم حرفٍ واحدٍ ألف درهم^(١)

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (١/ ٢٥-٢٦).

٥- ومن الأدب خدمته تواضعاً له:

يقول الإمام ابن الجوزي مخاطباً المُعَلِّمَ والطالب: «أيها المعلم: تثبت على المبتدي وقدر في السرد، فالعالم رسوخ، والمتعلم قلق.

ويا أيها الطالب: تواضع في الطلب، فإن التراب لما ذل لأخص القدم صار طهوراً للوجه، ولا تياس مع مداومة الخير أن يقوى ضعفك، فالرمل مع الزمان يستحجر، صابر ليل البلاء، فبعين الصبر ترى فجر الأجر، ما يُدْرِكُ منصب بلا نصب، ألا ترى إلى الشوك في جوار الورد؟»^(١).

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن الإمام الجليل السيد جعفر الصادق - رحمه الله ورضي عنه - أنه كان يقول: «أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منها:

- قيامه من مجلسه لأبيه .

- وخدمته لضيفه .

(١) اللطائف ص ٩٢ .

- وقيامه على دابته ولو أن له مئة عبد .

- وخدمته لمن يتعلم منه «^(١) .

وقال الزرنوجي: « والقاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي [ت: ٥١٢ هـ] كان رئيس الأئمة في مرو، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام، وكان يقول: إنما وجدت هذا المنصب بخدمة الأستاذ، فإني كنت أخدم أستاذي القاضي الإمام أبازيد الدبوسي [ت: ٤٣٥ هـ] وكنت أخدمه [في]^(٢) طعامه ولا آكل منه شيئاً «^(٣) .

ثم قال:

« وحكي أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب، فرآه يوماً يتوضأ ويغسل رجله، وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الخليفة الأصمعي في ذلك

(١) الطبقات الكبرى (١/ ٣٢)، والقول في جامع بيان العلم وفضله (٥٤٢ / ١) بلفظ: « كان يقال » بدون تعيين القائل .

(٢) زيادة مني .

(٣) تعليم المتعلم: فصل في تعظيم العلم وأهله ص ٤٨-٤٩ .

فقال: إنما بعثته إليك لتعلمه العلم وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك؟»^(١).

قلتُ: وهذا درس عظيم دال على قيمة العلم والعلماء عند الخلفاء، وعلى سنن الآباء جرى الأبناء، كما جاء عن الخليفة المأمون ابن الرشيد .

وقد نقل عنه أبو البركات الأنباري في ترجمة أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء الإمام اللغوي الثقة خيراً جميلاً فقال:

« كان المأمون قد وُكِّلَ الفراء ليلقن ابنه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدماها له فتنازعا أيهما يقدمها له ثم اصطلحا على أن يقدم كلُّ واحد منهما فردة، وكان للمأمون وكيل على كل شيء خاص، فرفع ذلك إليه في الخبر فوجه إلى الفراء واستدعاه، فلما دخل عليه قال له: مَنْ أعز الناس؟ فقال: لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين . فقال: بلى، مَنْ إذا نهض تقاتل على تقديم نعله

(١) المصدر السابق ص ٥٠-٥١ .

وليا عهد أمير المؤمنين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردة . فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها، وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض مَنْ حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهما! فقال له: اسكت يا جاهل لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً، وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلا من شرفهما، بل رفع من قدرهما، ولقد تبينت مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل - وإن كان كبيراً - عن ثلاث: تواضعه لسلطانه، ولو لوالديه، ولعلمه .

ثم قال: قد عوضتهما مما فعلا عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما» (١) .

(١) نزهة الألباء ص ٨٢-٨٣ .

وروى الإمام النووي عن الشيخ الفقيه الإمام الصالح محمد
البرسي قال:

[تصدر] الحافظ عبد الغني [المقدسي] ونحن جماعة فيهم
مفتون^(١)، فلما وضع رجله على درجة الكرسي قلت في نفسي:
بأي شيء فضلك الله علينا؟ فالتفت إليّ وقال: يا مدبر مَنْ خَدَم
خُدِمَ، مَنْ خَدَمَ خُدِمَ، مَنْ خَدَمَ خُدِمَ . فقلتُ: آمنت بالله «^(٢).

وكان الإمام النووي في هذا الباب قمة شامخة: يقول الإمام
السيوطي عنه: « أخذ الفقه عن شيخه إسحاق المغربي، وكان
يتأدب معه كثيراً ويملاً له الإبريق ويحمله معه إلى الطهارة »^(٣).

ومن الصور الرائعة في حياة هذا الإمام ما يذكره الشيخ
عبد الوهاب الشعراني إذ يقول: « وقد بلغنا عن الإمام النووي

(١) في الأصل: يفتون !

(٢) بستان العارفين ص ١٩١، وهو من الملحق في آخره .

(٣) المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ص ٣٩، وانظر لزاماً تحفة
الطالبين لابن العطار ص ٥٦، و ترجمة النووي للسخاوي ص ٣٥،
وفيها أنه فعل هذا مع شيخه الإمام عمر بن أسعد الربيعي .

أنه دعاه يوماً شيخه الكمال الإربلي ليأكل معه، فقال: يا سيدي اعفني من ذلك فإن لي عذراً شرعياً، فتركه، فسأله بعض إخوانه ما ذلك العذر؟ فقال: أخاف أن تسبق عينُ شيخي إلى لقمة فأكلها وأنا لا أشعر .

وكان رضي الله عنه إذا خرج للدرس ليقرأ على شيخه يتصدق عنه في الطريق بما تيسر ويقول: اللهم استر عني عيب معلمي حتى لا تقع عيني له على نقیصة ولا يبلغني ذلك عنه عن أحد»^(١).

ولهذه الآداب الرفیعة الجمّة التي تحلى بها مع شیوخه أكرمه الله تعالى بعقوبة من يسيء الأدب معه ويؤذيه:

قال السيوطي: « ورأيت في إنباء الغمر لشيخ الإسلام ابن حجر - رحمه الله - في ترجمة الجمال الريمي شارح التنبيه، أنه كان كثير الحط على الشيخ محيي الدين [النووي]، فلما مات جاءت

(١) لواقح الأنوار القدسية ص ٢٩ .

هرة وهو على المغتسل فاتزعت لسانه، قال: فكان ذلك عبرة للناس»^(١).

وأكرمه الله كذلك بأدب أئمة الدنيا معه، ومنهم الإمام تقي الدين السبكي:

قال ولده الشيخ تاج الدين السبكي حاكياً عنه: « ما زال - رحمه الله - كثير الأدب معه [مع النووي] والمحبة فيه والاعتقاد، قال لي مرات: ما اجتمع بعد التابعين المجموع الذي اجتمع في النووي، والتيسير الذي يسر له . ورافق مرة في مسيره وهو راكب على بغلة شيخاً ماشياً، فتحدثا، فوقع في كلام ذلك الشيخ أنه رأى النووي، ففي الحال نزل عن بغلته وقبّل يد ذلك الشيخ العامي الجلف وسأله الدعاء، ثم دعاه إلى أن يردفه خلفه وقال: لا أركب وعينُ رأّت وجه النووي تمشي بين يدي أبداً .

(١) المنهاج السوي ص ٨١، وإنباء الغمر (٣/ ٤٨)، والنص فيه هكذا: « قال لي الجمال المصري: كان الريمي كثير الازدراء بالنووي، فرأيت لسانه في مرض موته وقد اندلع واسودّ، فجاءت هرة فخطفته، فكان ذلك آية للنظرين . رب سلم .»

ولقد سكن دار الحديث الأشرفية وكان يخرج في الليل يتهدد
تجاه الأثر الشريف، ويمرّغ خده على الأرض فوق البساط الذي
يقال إنه من زمن الواقف، ويقال إن النووي كان يُدرّس عليه،
وأنشدني لنفسه في ذلك:

وفي دار الحديث لطيف معنيّ
على بسط لها أصبو وآوي
عسى أني أمس بخر وجهي
مكاناً مسه قدم النووي
فهذه حاله معه « (١) .

قال السخاوي: وكلام التقي في تكملة شرح المهذب يشهد
لذلك (٢).

-
- (١) ترشيح التوشيح وترجيح التصحيح، «مخطوط» (الورقة ١١) .
(٢) انظر: المنهل العذب الروي في ترجمة شيخ مشايخ الإسلام النووي
للسخاوي (الورقة ٥٥ ب).

ومنهم الإمام ابن حجر العسقلاني: قال تلميذه السخاوي في ترجمته: « وأما كثرة أدبه مع العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين فمشهور، بحيث كان إذا تعقب النووي - رحمه الله - بشيء يقول: وعجبت للشيخ مع سعة علمه كيف قال كذا، أو ما أشبه ذلك من العبارات »^(١).

أعود إلى جانب خدمة الشيخ لأقول: إنَّ هذا الأدب العالي سمة كل الكبار الموفقين من رجالات الإسلام.

ومنهم الإمام السيد أحمد الرفاعي: وقد قال محدث واسط الشيخ تقي الدين الواسطي عنه:

« كان سيدي أحمد - قدس الله روحه - في بدايته وهو شاب يقرأ القرآن على الشيخ العارف سيدي علي ابن القاري الواسطي رضي الله عنه، فصنع شخص طعاماً ودعا إليه ابن القاري وأصحابه من المشايخ والقراء وغيرهم، فلما حضروا قدم الطعام فأكلوا... وسيدي أحمد جالس عند نعال القوم، ونعل الشيخ ابن القاري معه ... »^(٢).

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/ ١٠٤٣).

(٢) ترياق المحيين في سيرة سلطان العارفين (مخطوط).

ومن هؤلاء الحافظ الهيثمي: قال الحافظ السخاوي في ترجمته: « وكان عجباً في الدين والتقوى والزهد والإقبال على العلم والعبادة والأوراد وخدمة الشيخ [أي الحافظ الزين العراقي]... وحدث بالكثير رفيقاً للزين، بل قلَّ أن حدث الزين بشيء إلا وهو معه، وكذلك قلَّ أن حدث هو بمفرده، لكنهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه، ومع ذلك فلم يغير حاله، ولا تصدر ولا تمسّخ، وكان - مع كونه شريكاً للشيخ - يكتب عنه الأمالي، بحيث كتب عنه جميعها، وربما استملى عليه، ويحدث بذلك عن الشيخ لا عن نفسه إلا لمن يضايقه، ثم نقل السخاوي عن الحافظ ابن حجر أنه قال في «معجمه» عنه: «وقد عاشرتها مدة فلم أرهما يتركان قيام الليل، ورأيت من خدمته لشيخنا وتأدبه معه من غير تكلفٍ لذلك ما لم أره لغيره ولا أظن أحداً يقوى عليه .

وقال البرهان الحلبي: إنه كان من محاسن القاهرة، ومن أهل الخير، غالب نهاره في اشتغالٍ وكتابةٍ، مع ملازمة خدمة الشيخ

في أمر وضوئه وثيابه، ولا يخاطبه إلا بسيدي حتى كان في أمر
خدمته كالعبد! (١)

وقال الإمام الشافعي: « لا يطلبُ أحدٌ هذا العلم بالملك
وعزة النفس فيفلح، ولكن مَنْ طلبه بذل النفس، وضيق العيش،
وخدمة العلماء أفلح » (٢).

ومن الشعر الرائق الصادق قول الأديب الصالح أبي عامر
القومسي (ت: ٤٤٩هـ):

العلمُ يأتي كلَّ ذي
خفضٍ ويأبى كلَّ آبي
كالماءِ ينزلُ في الوها
دِ وليس يصعدُ في الروابي (٣)

(١) الضوء اللامع (٥/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) من المجموع للنووي (١/ ٦٥)، والآداب الشرعية لابن مفلح
(٢/ ٢٤)، ونص الجملة الأخيرة عنده: « وخدمة العلم وتواضع
النفس أفلح ».

(٣) الوافي بالوفيات (١٢/ ٢٤٥).

وهو ينظم في هذا قول عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً^(١).

ومن الكلمات الجميلة قول الإمام محمد بن عبد الباقي الأنصاري البغدادي الحنبلي (ت: ٥٣٥ هـ): « من خدم المحابر خدمته المنابر »^(٢).

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في كلامه على صفات المتعلم:

« أن لا يستتكف من جفوة تناله من معلمه، وخدمة يبذلها .
فقد قيل: إذا دبرت لصلاحك فتشكك بشكل المريض للطبيب،
فمن جرعك المر لتصح خير ممن يطعمك الحلو لتسقم »^(٣).

وعن خدمة الشيخ والصبر على ما قد يكون منه يقول العلامة المفسر الألوسي في كلامه على شيخه العلامة علي علاء الدين الموصللي، وكان يعاني من ضيق يده حتى ضاقت أخلاقه:

(١) الآداب الشرعية (٢ / ٢٥) .

(٢) المنتظم (١٨ / ١٤)، والذيل على طبقات الحنابلة (١ / ١٩٤) .

(٣) فضيلة الإنسان بالعلوم ص ٢٩٥ بتصرف يسير .

« ولم يتخرج عليه إلا جمع هم أقل من إنصاف الزمان، بل المتخرج - إذا تتبععت - واحد أو اثنان، وذلك لقلّة تحمّل الطلبة كثرة دله، وعدم وقوفهم على وافر فضله، ولا ينقص العالم قلّة طلبته، كما لا ينقص النبي عدم أمته، وأنا - والله تعالى الحمد - صبرت على مرّه، وصيرتُ شغلي السعي في صفاء سرّه، وتأدبت معه غاية الأدب، وانتهى أداء رسم خدمتي إياه إلى حدّ العجب، وإني لأرجو أن أنال ببركة ذلك مزيد الآلاء، فَبِرْكَتِهِ بِرْكَتُ خِدْمَةِ الشَّيْخِ بِحَرِّ لَا تَنْزَحُهُ الدَّلَاءُ » (١) .

(١) غرائب الاغتراب ونزهة الألباب ص ١١ .

٦- ومن الأدب معه: هيئته واحترامه وتوقيره:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: « ما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطق، لأنِّي لم أكن أملاً عينيَّ منه ... » (١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأؤخره ستين من هيئته، ولقد كنت ألقاه كل يوم .

وقال عبد الله بن عباس: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر ابن الخطاب عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة (٢).

وعن عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي قال: ما كان إنسان

(١) رواه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ...، برقم (١٩٢).

(٢) روى القولين الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/١٩٦)، وأصل قول ابن عباس في صحيح البخاري .

يجترىء على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير^(١).

وعن إسحاق الشهيد قال:

« كنت أرى يحيى القطان (ت: ١٩٨ هـ) يصلي العصر ثم يستند إلى أصل منارة مسجده، فيقف بين يديه علي بن المديني (ت: ٢٣٤ هـ)، والشاذكوني (ت: ٢٣٤ هـ)، وعمرو بن علي الفلاس (ت: ٢٤٩ هـ) وأحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ) ويحيى ابن معين (ت: ٢٣٣ هـ) وغيرهم يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم إلى أن تحين صلاة المغرب، لا يقول لواحد منهم: اجلس، ولا يجلسون هيبَةً له وإعظاماً^(٢)».

وروى الإمام النووي عن الإمام الشافعي أنه قال:
« كنت أصفح الورقة بين يدي مالك - رحمه الله - صفحاً رفيقاً هيبَةً له لئلا يسمع وقعها .

(١) الجامع للخطيب (١/ ٢٧٥).

(٢) الجامع (١/ ٢٧٧)، ومناقب أحمد لابن الجوزي ص ٥٧، وهو يروي عن الخطيب .

وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبه له !» (١) .

وللإمام القسطلاني في هذا السياق كلام جميل إذ يقول:

« ينبغي للطالب أن يتأدب مع شيخه ويبجله ويعظمه، فبقدر إجلاله له يكون انتفاعه بعلمه، وأن يعتقد أهليته ورجحانه، قال بعضهم: من لم ير خطأ شيخه خيراً من صواب نفسه لم ينتفع به، وكان بعضهم إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه مني» (٢) .

وليس الأمر مقتصرًا على توقيره فحسب، فقد قال العلامة طاشكبري زاده: « ومن توقيره: توقير أولاده ومن يتعلق به، وللسلف في توقير المعلم أمور لا يكاد يخطر فعله ببال أحد في زماننا هذا » (٣) .

(١) المجموع (٦٧/١) .

(٢) لطائف الإشارات (٣٣٢/١) .

(٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٢٦/١)، وقد توفي طاشكبري سنة (٩٦٨ هـ) .

٧- ومن الأدب معه ألا يشعر بمساواته والاستغناء عنه:

قال الماوردي في كلامه على أدب المتعلم: « ولا يظهر له الاستكفاء منه، والاستغناء عنه، فإن في ذلك كفراً لنعمته، واستخفافاً بحقه، وربما وجد بعض المتعلمين قوةً في نفسه، لجودة ذكائه، وحدةً خاطره، فقصد مَنْ يعلمه بالإعانت له، والاعتراض عليه، ازدراءً به، وتبكيئاً له، فيكون كمن تقدم به المثل السائر لأبي البطحاء:

أعلّمه الرمايةَ كلَّ يومٍ
فلما استدَّ^(١) ساعدهُ رماني

وهذه من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم، أن يصيروا عند مَنْ يعلمونه مستجهلين، وعند مَنْ قدموه مسترذلين . وقال صالح بن عبد القدوس:

(١) قال الأصمعي: اشتد - بالشين المعجمة - ليس بشيء. انظر: لسان العرب (٧/ ١٥٠). وفيه الخلاف في اسم قائله .

وإنَّ عناءَ أَنْ تَعْلَمَ جاهلاً
 فيحسب جهلاً أَنَّهُ منك أعلمُ
 متى يبلغُ البنيانُ يوماً تمامَهُ
 إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدمُ؟
 متى ينتهي عن سيءٍ مَنْ أتى به
 إذا لم يكن منه عليه تندمُ؟^(١)

وعن الإمام النحوي الفراء قال: « قال لي رجل: ما اختلافك
 إلى الكسائي (ت: ١٨٩ هـ) وأنت مثله في النحو! فأعجبني
 نفسي، فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء، فكأني كنت طائراً يعرف
 بمنقاره من البحر! »^(٢).

(١) أدب الدنيا والدين صد ٧٧ .

(٢) طبقات المفسرين للداوودي (١/٤٠٦) .

٨- ومن الأدب معه تحمل ما قد يقع منه:

قال الإمام ابن مفلح: « ينبغي أن يحتمل الطالب ما يكون من الشيخ، أو من بقية الطلبة، لئلا يفوته العلم، فتفوته الدنيا والآخرة مع حصول العدو طلبه، وشهاتة الأعداء من الأربعة المأمور بالاستعاذة منهن في الصحيحين، في قوله عليه السلام: تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشهاتة الأعداء».

وقد قيل:

لمحبرةٌ تجالسني نهاري
أحب إليّ من أنسِ الصديقِ
ورزمة كاغد في البيت عندي
أعز إليّ من عدلِ الدقيقِ
ولطمة عالم في الخد مني
ألذ علي من شرب الرحيقِ

وقال الشافعي: غضب الأعمش يوماً على رجل من الطلبة، فقال آخر: لو غضب عليّ مثلك لم أعد إليه . فقال له الأعمش: إذن هو أحق مثلك يترك ما ينفعه لسوء خلقي . ذكره البيهقي «^(١) .

ومرّ معنا قول الراغب الأصفهاني: « أن لا يستنكف من جفوة تناله من معلمه » .

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٢٥-٢٦) .

٩- ويرى بعض العلماء أن من صور الأدب عدم الجلوس في مكان الشيخ:

قال العلامة طاشكبري زاده: « من توقير المعلم أن لا تمشي أمامه، ولا تجلس مكانه »^(١).

وجاء في ترجمة الإمام القاضي فخر الدين محمد بن علي المصري الشافعي (٦٩١-٧٥١ هـ) أنه في سنة (٧١٥ هـ) ولي تدريس « العادلية » الصغيرة، وفيها أذن له بالإفتاء، وكان له من العمر ثلاث وعشرون سنة، ولما توفي شيخه الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين جلس بعده بالجامع الأموي في حلقة الإشغال في المذهب، وتأدب مع شيخه فأخلى مكانه وجلس دونه »^(٢).

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (١/٢٦).

(٢) الوافي بالوفيات (٤/٢٢٧).

١٠- ومن الأدب الرفق بمن يأخذ عنه:

قال السيوطي في معرفة آداب اللغوي:

« وليرفق بمن يأخذ عنه، ولا يكثر عليه، ولا يطول بحيث يضجر . وفي أمالي ثعلب أنه قال حين آذوه بكثرة المسائل قال أبو عمرو: لو أمكنت الناس من نفسي ما تركوا لي طوبة، أي آجرة»^(١).

وقد روى ابن عبد البر عن ابن جريج قوله: «لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به»^(٢).

(١) المزهر (٢/٣١٢)، وانظر خبراً نقله عن ثعلب (٢/٣٢٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٤٢٣).

١١- ومن الأدب معه إخلاص القصد في السؤال:

قال الراغب الأصفهاني وهو يتحدث عن صفات المتعلم أمام شيخه: « أن لا يسأله تعنتاً، فقد قيل: إذا جالست عالماً فأسأله تفقهاً لا تعنتاً »^(١).

ومن المفيد تأمل هذه الحكاية:

قال ابن خلكان في ترجمة الفقيه العالم الزاهد الجليل الرباني يوسف بن أيوب الهمداني (ت: ٥٣٥ هـ):

« قدم بغداد في سنة خمس عشرة وخمسمائة وحدث بها، وعقد بها مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية وصادف بها قبولاً عظيماً من الناس، قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح: حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمداني في النظامية، وكان قد اجتمع العالم، فقام فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة، فقال له الإمام يوسف: اجلس فإني أجد

(١) فضيلة الإنسان بالعلوم ص ٢٩٥.

من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير دين الإسلام، قال أبو الفضل: فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة، فمضى إليه ابن السقاء وسأله أن يستصعبه وقال له: يقع لي أن أترك دين الإسلام وأدخل في دينكم، فقبله النصراني، وخرج معه إلى القسطنطينية والتحق بملك الروم، وتنصّر ومات على النصرانية .

قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي في (تاريخ بغداد) في ترجمة يوسف الهمداني المذكور: سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرئ يقول: كان ابن السقاء قارئاً للقرآن الكريم مجوداً في تلاوته، حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقى على دكة مريضاً، وبيده خَلْقٌ مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه، قال فسألته: هل القرآن باق على حفظك؟ فقال: ما أذكر منه إلا آية واحدة ﴿ رَبِّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢] والباقي أنسيته .

نعوذ بالله من سوء القضاء وزوال نعمته وحلول نقمته،
ونسأله الثبات على دين الإسلام، آمين آمين آمين» (١).

(١) وفيات الأعيان (٧/٧٨-٧٩).

الخاتمة

وبعد: فقد قال الشيخ ابن تيمية:

« يجب على المسلمين - بعد موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ - موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة - قبل مبعث نبينا محمد ﷺ - فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم^(١) قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا^(٢) .

(١) من هنا إلى الأخير من كلام الحارث المحاسبي في كتابه « القصد والرجوع إلى الله » المطبوع مع كتب له أخرى تحت عنوان « الوصايا » ص: ٢٩٠ وتتمته: « وبهم علم الكتاب وبه علموا، ليس يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماناً دون ما يرتجون، ولا خوفاً دون ما يحدرون » وكلام المحاسبي عن الأولياء .
(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ١١-١٢ .

وقال الشيخ الشعراي: «أخِذْ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نكرم العلماء ونجلهم ونوقرهم، ولا نرى لنا قدرةً على مكافأتهم، ولو أعطيناهم جميع ما نملك، أو خدمناهم العمر كله، وهذا العهد قد أخلَّ به غالبُ طلبة العلم والمريدين في طريقة الصوفية الآن، حتى لا نكاد نرى أحداً منهم يقوم بواجب حق معلّمه، وهذا داء عظيم في الدين مؤذن باستهانة العلم، وبأمر مَنْ أمرنا بإجلال العلماء ﷺ ...»

ثم قال: «ثم من أقل آفات سوء أدبك يا أخي مع الشيخ أنك تحرم فوائده، فإما بكتمها عنك بغضاً فيك، وإما أن لسانه ينعقد عن إيضاح المعاني لك، فلا تتحصل من كلامه على شيءٍ تعتمد عليه عقوبةً لك، فإذا جاءه شخص من المتأدبين معه انطلق لسانه له لموضع صدقه وأدبه معه، فعلم أنه ينبغي للطالب أن يخاطب شيخه بالإجلال والإطراق وغيضِ البصر كما يخاطب الملوك ...» (١).

(١) لوائح الأنوار القدسية ص ٢٩ .

ومن الأمثلة على قول الشعرا في هذا ما جاء في ترجمة المحدث
الثقة الأديب محمد بن كُناسة (ت: ٢٠٧ هـ):

« قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: أتيت محمد بن كُناسة
لأكتب عنه، فكثرت عليه أصحاب الحديث فتضجر بهم وتجهمهم،
فلما انصرفوا عنه دنوت منه، فهش إليّ واستبشر بي وبسط وجهه،
فقلت له: لقد تعجبت من تفاوت حالتك! فقال لي: أضجرتني
هؤلاء بسوء أدهم، فلما جئتنني أنت انبسطت إليك، وأنشدتك،
وقد حضرني في هذا المعنى بيتان، وهما:

فِي انقباض وحشمة، فإذا

رأيت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسي على سجيتهما

وقلت ما شئت غير محتشم

فقال له إسحاق: وددتُ أني قلتها بما أملك، فقال ابن
كُناسة: ما ظهر عليهما أحد فخذهما وانحلها نفسك، وقد
وفّر الله عليك مالك، والله ما قلتها إلا الساعة. فقال: أستحي

من نفسي أن أدعي ما لم أقل . أو قال: فكيف لي بعلم نفسي أنهما ليسا لي ؟^(١) .

وفي قول إسحاق الموصلي: « أستحي من نفسي أن أدعي ما لم أقل » دلالة على فضل نفسه وسموها، وتذكير لمن هانت عليه نفسه فادعى ما ليس له من علم أو أدب !

وقال العلامة طاشكبري زاده (ت: ٩٦٨ هـ): « من جملة أسباب انقراض العلم في زماننا: عدم تحرزهم عن مراعاة حق العلم، ولقد صار هذا سنة سيئة في زماننا هذا . أمات الله تعالى هذه السنة من بين أظهرنا وقاتل الله مَنْ وضعها وأحياها . قيل: من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلاً^(٢) .

واعلم أن سوء أدب الطلبة كان سبباً لاعتزال العلامة السيوطي، وقد أُلّف في ذلك مقامته الحزينة « التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس » وقال فيها:

(١) الوافي بالوفيات (٤/ ٣٧٧-٣٧٨) .

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (١/ ٢٥) .

« أما التدريس فأخذ عني ثلاث طبقات :

طبقة أولى: كانت خيراً صرفاً، ديناً وفضلاً وصدقاً وعزماً،
فحياها الله وبيهاها، وأسبغ عليها رحمته مמתها ومحيهاها،
وأمطر علينا سحائب فضله وإياها .

طبقة ثانية: تعرف وتنكر، وتذم وتشكر، وهذه يحمل أمرها،
ويروج سعرها، ويخفف إضرها .

ثم جاءت طبقة الثالثة: الله أكبر ما أكثر شرها، وأكبر حرها،
وأشد إضرها، وأنكر أمرها، وأعظم إمرها، وأقوى فجورها،
وأوفى كذبتها وبهتانها وزورها، عظيمة السفه والجهل، ليست
للعلم ولا للحلم بأهل»^(١) .

ولهذا الألم الذي يعتصر قلبه علق شاكياً حين ترجم الإمام
الوجيه المبارك ابن الدهان النحوي الضرير الذي كان حنبلياً ثم
تحول حنفيّاً، ثم لما درس النحو بالنظامية صار شافعيّاً، وقال فيه
تلميذه أبو البركات محمد بن أبي الفرج التكريتي أبياتاً ساخرة،

(١) التنفيس، ضمن « شرح المقامات » (٢/١٠٠١-١٠٠٢) .

علق السيوطي قائلاً: هكذا تكون التلامذة، يتخرجون بأشياخهم
ثم يهجونهم! لا قوة إلا بالله» (١).

ورحم الله الإمام الفقيه القدوة الأستاذ أبا سهل محمد بن
سليمان الصعلوكي الشافعي (ت: ٣٦٩ هـ) القائل:

«عقوق الوالدين يمحوها الاستغفار، وعقوق الأستاذين
لا يمحوها شيء» (٢).

(١) بغية الوعاة (٢/ ٢٧٤)، ونقل الترجمة بنصها تلميذه الداودي في
طبقات المفسرين (٢/ ٣٠١-٣٠٢). والأبيات هي:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة
وإن كان لا تجدي إليه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل
وذلك لما أعوزتك المآكلُ
وما اخترت رأي الشافعي ديانة
ولكن لأن تهوى الذي منه حاصلُ
وعما قليل أنت لا شك صائر
إلى «مالك» فافطن لما أنا قائلُ!

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٧١)، وطبقات المفسرين للداودي
(٢/ ١٥٥).

ومن هنا - والله أعلم - كان الشيخ سراج الدين أبو بكر ابن إسماعيل المزجاجي (ت: ١١٦٧ هـ) لا يسامح الطلبة « في شيء من الآداب، ومن أخل زجره غاية الزجر، وكان يأمر بقراءة « طلبية الطلبة»^(١) و« آداب العالم والمتعلم » ويطالبهم بأدائها، فكانت طلبته أحسن الطلبة أدباً وجداً واجتهاداً وعملاً»^(٢).

هذا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، ومعلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين^(٣).

- (١) طلبية الطلبة في طريق العلم لمن طلبه للكاشغري (ت: ٧٠٥ هـ).
انظر: جامع الشروح والحواشي ١٣٤٥ / ٢.
- (٢) نزهة رياض الإجازة المستطابة ص ١٦٩.
- (٣) فائدة: وقفت بعد فراغي من هذه الرسالة على (الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد) للعلامة بدر الدين محمد بن محمد الغزي (ت: ٩٨٤)، ورأيته خصص القسم الثاني من النوع الثالث من الباب الثالث لأدب الطالب مع شيخه وقلوته، وما يجب عليه من تعظيم حرمة ص ١٣٨ - ١٥٤، وهو مفيد فقفاً عليه.

فهرس المصادر

- ١- إتخاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢- أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، تح: مصطفى السقا ، مصورة دار الفكر- بيروت .
- ٣- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لابن مفلح ، مصورة مؤسسة قرطبة عن طبعة الشيخ محمد رشيد رضا .
- ٤- آداب الفلاسفة ، اختصار محمد بن علي الأنصاري ، تح: د. عبد الرحمن البدوي ، الكويت ، ط ١ (١٤٠٦هـ) .
- ٥- آداب المتعلمين ، لنصير الدين الطوسي ، تح: د. يحيى الخشاب ، منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية ، م٣ ج١-٢ ، ط ٢ (١٤١٤هـ-١٩٩٣م) .
- ٦- الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ، تح: عبد العزيز الوكيل ، مؤسسة الحلبي - القاهرة ، (١٣٨٧هـ) .
- ٧- الإمام النووي ، لعبد الغني الدقر ، دار القلم - دمشق ، ط ٣ (١٤٠٧هـ) .

- ٨- إنباء الغمر بأبناء العمر ، لابن حجر ، مصورة دار الكتب العلمية عن الطبعة الهندية .
- ٩- بستان العارفين ، للنووي ، تح: محمد الحجار ، مكتبة دار الدعوة - حلب ، ط٢ (١٣٩٩هـ) .
- ١٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصورة دار الفكر - بيروت . ط٢ (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .
- ١١- تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١٢- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي : أ- مصورة دار الفكر - بيروت . ب- تح: د. بشار عواد معروف ، وهي بعنوان : تاريخ مدينة السلام ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ط١ (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) ، فإن أردتها صرحت بها .
- ١٣- التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، الدار التونسية للنشر .
- ١٤- تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (النووي) ، لابن العطار ، تح: مشهور آل سلمان ، دار الصمعي - الرياض ، ط١ (١٤١٤هـ) .

- ١٥- تذكرة الحفاظ ، للذهبي ، مصورة دار إحياء التراث العربي عن الطبعة الهندية .
- ١٦- التراتيب الإدارية ، لعبد الحي الكتاني ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- ١٧- ترجمة النووي ، للسخاوي ، الطبعة المصرية الأولى وهي ناقصة كثيراً . وانظر : المنهل العذب الروي .
- ١٨- ترشيح التوشيح وترجيح التصحيح ، لتاج الدين السبكي ، (مخطوط مصور في مركز جمعة الماجد بدي) .
- ١٩- ترياق المحبين في سيرة سلطان العارفين (أحمد الرفاعي) ، لتقي الدين الواسطي (مخطوط مصور في خزانتني) .
- ٢٠- تطبيق حكم الطريقة العلية على الأحكام الشرعية النبوية ، لأبي الهدى الصيادي (ضمن أشرف الوسائل) ، د.م.، ط ١ (١٣٨٩هـ) .
- ٢١- التعريفات ، للجرجاني ، تح: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٢ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م) .
- ٢٢- تعليم المتعلم في طريق التعلم ، للزرنوجي ، تح: صلاح الخيمي ونذير حمدان ، دار ابن كثير - دمشق ، ط ١ (١٤٠٦هـ) .

- ٢٣- تفسير البيضاوي ، مصور عن طبعة المطبعة العثمانية،
(١٣٠٥هـ).
- ٢٤- تفسير الرازي ، دار الفكر - بيروت ، ط ٣ (١٤٠٥هـ) .
- ٢٥- تقريب التهذيب ، لابن حجر ، تح: محمد عوامة ، دار ابن حزم
- بيروت ، ط ١ (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) .
- ٢٦- التنفيس بالاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس ، للسيوطي ،
ضمن " شرح المقامات " ، تح: سمير محمود الدروبي ، مؤسسة
الرسالة - بيروت ، ط ١ (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م) .
- ٢٧- تهذيب الأسرار ، للخركوشي ، تح: بسام بارود ، دار البارودي
- بيروت ، ط ١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨م) .
- ٢٨- تهذيب الأسماء واللغات ، للنووي ، مصورة دار الكتب العلمية
- بيروت .
- ٢٩- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، الدار
المصرية للتأليف والترجمة .
- ٣٠- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي ،
تح: د. محمد عجاج الخطيب ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١
(١٤١٢هـ) .

- ٣١- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تح: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - الدمام، ط ٥ (١٤٢٢هـ).
- ٣٢- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تح: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٣٣- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، للسخاوي، تح: إبراهيم باجس عبد الحميد، دار ابن حزم - بيروت، ط ١ (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
- ٣٤- الحث على طلب العلم، لأبي هلال العسكري، تح: د. مروان قباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ١ (١٤٠٦هـ).
- ٣٥- الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، للغزي، تح: عبد الله محمد الكندري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١ (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ٣٦- الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب، تح: حامد الفقي، مصورة دار المعرفة - بيروت.
- ٣٧- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط ٣ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ٣٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- ٣٩- الزاهر في معاني كلمات الناس ، لابن الأنباري ، تح: د. حاتم الضامن ، دار الرشيد للنشر - بغداد ، ط ١ (١٣٩٩هـ) .
- ٤٠- سؤالات أبي عبد الرحمن السلمي للدارقطني ، في الجرح والتعديل ، تح: مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث - طنطا ، ط ١ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م) .
- ٤١- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، تح: مجموعة من المحققين ، مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ٤٢- شرح عين العلم وزين الحلم ، لعلي القاري ، مصورة مكتبة الثقافة الدينية .
- ٤٣- صفحات في أدب الرأي ، لمحمد عوامة ، دار القبلة جدة - السعودية ، ط ١ (١٤١٢هـ) .
- ٤٤- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل ، لعبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط ٣ .
- ٤٥- صحيح مسلم بن الحجاج ، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م).
- ٤٦- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، للسيوطي، تح: علي سامي النشار ، مكتبة الخانجي - القاهرة . ط ١ (١٩٣٨ م) على ما في ص ٣٩٤ .

- ٤٧- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، مصورة دار الكتاب الإسلامي - القاهرة ، عن طبعة القدسي .
- ٤٨- طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ، تح: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .
- ٤٩- الطبقات الكبرى ، للشعراني ، دار الفكر - بيروت .
- ٥٠- طبقات المفسرين ، للدواودي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، د . ت .
- ٥١- عوارف المعارف للسهروردي (المنسوب خطأ إلى عبد القاهر بن عبد الله ، وهو لابن أخيه عمر) ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- ٥٢- غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب ، لمحمود الألوسي ، مطبعة الشابندر - بغداد ، (١٣٢٧ هـ) .
- ٥٣- فضيلة الإنسان بالعلوم ، للراغب الأصفهاني ، تح: د. عمر عبد الرحمن الساريسي ، رسالة منشورة في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، العدد (٢٢) ، (شوال ١٤٢٢ هـ - ديسمبر ٢٠٠١ م) .
- ٥٤- الفقيه والمتفقه ، للخطيب البغدادي ، تح: عادل بن يوسف العزازي ، دار ابن الجوزي - الدمام ، ط ٢ (١٤٢١ هـ) .

٥٥- فهرست الليلي ، لأحمد بن يوسف الفهري ، تح: ياسين يوسف عياش وعود عبد ربه أبو زينة ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) .

٥٦- الفوائد والأخبار والحكايات عن الشافعي وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وغيرهم ، لأبي علي الحسن بن الحسين بن حكمان الهمذاني الشافعي ، تح: د. عامر حسن صبري ، مع «من كتاب الزهد» لأبي حاتم الرازي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت ، ط ١ (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م) .

٥٧- فيض القدير بشرح الجامع الصغير ، للمناوي ، مصورة دار الفكر - بيروت .

٥٨- القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ٤ (١٤١٥هـ-١٩٩٤م) .

٥٩- قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي ، د. ناجية عبد الله إبراهيم ، دار زهران - عمان ، ط ٢ (٢٠٠٢م) .

٦٠- القصد والرجوع إلى الله للحارث المحاسبي ، ضمن «الوصايا» ، تح: عبد القادر أحمد عطا .

٦١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعجلوني ، مؤسسة الرسالة ، ط ٦ (١٤١٦هـ-١٩٩٦م) .

- ٦٢- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ٤ (٢٠٠٥م).
- ٦٣- اللطائف، لابن الجوزي، تح: عبد الله بدران، مكتبة دار المحبة- دمشق، د.ت..
- ٦٤- لطائف الإشارات لفنون القراءات، للقسطلاني، تح: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م).
- ٦٥- لوائح الأنوار القدسية، للشعراني، مصطفى البابي الحلبي، ط ٢ (١٣٩٣هـ-١٩٧٣م).
- ٦٦- المجموع، للنووي، مكتبة الإرشاد - جدة.
- ٦٧- محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ٦٨- مراتب الإجماع، لابن حزم، بعناية: حسن أحمد إسبر، دار ابن حزم - بيروت، ط ١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨م).
- ٦٩- المزهرة، للسيوطي، مصورة دار الفكر - بيروت.
- ٧٠- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، انتقاء الدمياطي، تح: د. قيصر أبو فرح، مصورة دار الكتب العلمية عن الطبعة الهندية.
- ٧١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، دار الفكر - بيروت.

- ٧٢- معجم الأدباء ، لياقوت الحموي :
أ- تح: د. إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ط ١
(١٩٩٣ م) .
- ب- تح: أحمد فريد رفاعي ، مصورة مؤسسة التاريخ العربي عن
الطبعة المصرية .
- ٧٣- مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاشكبري زاده ، دار الكتب
العلمية - بيروت .
- ٧٤- من أدب الإسلام ، لعبد الفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية
- بيروت ، ط ١ (١٤١٢ هـ) .
- ٧٥- مناقب أحمد ، لابن الجوزي ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ،
ط ٣ (١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م) .
- ٧٦- مناقب الإمام أبي حنيفة ، للخوارزمي ، دار الكتاب العربي -
بيروت ، (١٤٠١ هـ-١٩٨١ م) .
- ٧٧- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لابن الجوزي ، تح: محمد
ومصطفى ابني عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت ،
ط ١ (١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م) .
- ٧٨- المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ، للسيوطي ، تح:
أحمد شفيق دمج ، دار ابن حزم - بيروت ، ط ١ (١٤٠٨ هـ-
١٩٨٨ م) .

- ٧٩- المنهل العذب الروي في ترجمة شيخ مشايخ الإسلام النووي ،
للسخاوي (مخطوط مصور في خزانتي) .
- ٨٠- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، للأنباري ، تح: د. إبراهيم
السامرائي ، مكتبة المنار الزرقاء - الأردن ، ط ٣ (١٤٠٥ هـ) .
- ٨١- نزهة رياض الإجازة المستطابة بذكر مناقب المشايخ أهل الرواية
والإصابة ، للمزجاجي ، تح: مصطفى الخطيب وعبد الله الحبشي ،
دار الفكر - بيروت ، ط ١ (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م) .
- ٨٢- النعم السوابغ " شرح النوابع " ، للتفتازاني ، الدار العالمية .
- ٨٣- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب ، للمقري ، تح: د. مريم قاسم طويل
و د. يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١
(١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) .
- ٨٤- الوافي بالوفيات ، للصفدي ، تح: مجموعة من المحققين
العرب والأجانب ، دار النشر فرانز شتايز - شتوتغارت ، ط ٣
(١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) .
- ٨٥- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تح: إحسان عباس ، دار
صادر - بيروت .

الفهرس

| ص | الموضوع |
|----|--|
| ٥ | المقدمة..... |
| ١١ | تعريف الأدب لغة واصطلاحاً..... |
| ١٤ | أهمية الأدب..... |
| ١٧ | أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..... |
| ٢٢ | أدب الصحابة مع الرسول ﷺ..... |
| ٢٥ | صور من أدب الصحابة فيما بينهم..... |
| ٣١ | جملة من الآداب المطلوبة تجاه المعلم..... |
| ٣١ | ١- من الأدب حسن الجلوس بين يديه..... |
| ٣٣ | ومن حُرِّمَ هذا الأدب حُرِّمَ من العلم..... |
| ٤١ | ولابأس من تقبيل يد الشيخ..... |
| ٤٣ | ٢- ومن الأدب عدم تخطئته علناً أمام الملاء..... |
| ٤٩ | ٣- ومن الأدب ترك الكلام بحضرته..... |
| ٥٠ | ومن لم يلتزم بهذا عرض نفسه لالامحمد..... |
| ٥٢ | ٤- ومن الأدب معاملته كالأبوين بل أكثر..... |

| ص | الموضوع |
|-----|--|
| ٥٧ | ٥- ومن الأدب خدمته توأضعأله..... |
| ٧٠ | ٦- ومن الأدب معه: هيئته واحترامه وتوقيره..... |
| ٧٣ | ٧- ومن الأدب معه ألا يشعر بمساواته والاستغناء عنه..... |
| ٧٥ | ٨- ومن الأدب معه تحمل ما قد يقع منه..... |
| ٧٧ | ٩- ومن صور الأدب عدم الجلوس في مكان الشيخ..... |
| ٧٨ | ١٠- ومن الأدب الرفق بمن يأخذ عنه..... |
| ٧٩ | ١١- ومن الأدب معه إخلاص القصد في السؤال..... |
| ٨٢ | الخاتمة..... |
| ٨٩ | المصادر..... |
| ١٠١ | المحتوى..... |
| | *** |